

الإسلام في أوروبا الشرقية

في أمسية الغزو المنغولي

(١٠١٦ م - ١٢٢٣ م)

لؤي ستاز المؤرخ أرسطو بوهانوكز (*)

بقلم الأستاذ علي محمد مرطوي

والأمر على جانب عظيم من الخطورة ؛ ذلك لأن أراضي هاتين المملكتين قد أصبحت المركز الرئيسي للدين والسياسة لحياة عصر هؤلاء البرابرة الذهبي ؛ هذا القسم من الأباطورية المنغولية الذي أخضع لحكمه روسيا حتى نهاية القرن الخامس عشر ، والذي غدا فيه الإسلام - في وقت قصير - الدين العام لهذه الأباطورية .

مصر الإسلام في المملكة البلغارية على الفولجا

لا توجد صعوبة تتعلق بمصر المملكة البلغارية على نهر الفولجا أثناء الفترة التي نتحدث عنها ؛ إذ بقيت هذه المملكة حتى الغزو المنغولي ، والدين الإسلامي غير منتشر بين الطبقة الحاكمة من الأتراك والبلغاريين غصب ، وإنما بين القبائل الفينية (Finnish) التي يتألف من أفرادها السواد الأعظم من السكان . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا لا نعرف بالضبط المستوى الذي وصلت إليه الثقافة الإسلامية بين بلغاري الفولجا في الفترة نفسها .

وفي عن البيان أن تشير إلى أن تضمضم المملكة الكيفيانية (Kievan State) ، التي كانت تقع إلى الشمال الشرقي من روسيا الحديثة ، والتي كانت تسمى باسم سوزادلي (Suzdaly) ، في محاذاة المملكة البلغارية ، قد جعل الأخيرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، المركز الرئيسي للحياة الروسية السياسية . وفي بداية أمسية الغزو المنغولي ، أخذت روسيا تعد سلطانها على حساب المملكة البلغارية ، حتى استولت عام ١٢٢١ م على مصب نهر أوكا (أحد الروافد الرئيسية لنهر الفولجا) ، وفي السنة نفسها بنيت مدينة نيجني نوفجورد (Nijni Novgorod) .

وتنحصر المشكلة ، تحت وطأة هذه الظروف ، في تتبع مصر الإسلام في أوروبا الشرقية ، في أمسية الغزو المنغولي ، في مملكة الخزر .

زالت مملكة الخزر من سجل الوجود عام ١٠١٦ ، حين هاجمتها القوات البيزنطية والروسية المتحالفة ، فهزمت تلك القوات مجتمعة ، آخر ملوك الخزر ، ووقع أسيراً في أيديها . ومصر الإسلام في أراضي مملكة الخزر السابقة ، بعد سقوطها

و يعرف التاريخ أن كثيراً من البوذيين أو المسيحيين قد اعتنقوا الدين الإسلامي ، ولكن هذا التاريخ لا يعرف أن المسلمين قد اعتنقوا البوذية أو النصرانية . الأستاذ د . بارتولد - جامعة بطرس برج

الذين يمتنون بدراسة تاريخ أوروبا الشرقية يعرفون أن الدين الإسلامي قد بدأ يتغلغل في مملكة الخزر (وهي المنطقة الواقعة بين مصب نهر الفولجا والدون) من القرن الثامن الميلادي ؛ وفي بداية القرن الحادي عشر أصبح له أتباع كثيرون ، ولعله أصبح - وإن لم يكن صاحب النفوذ السياسي - الدين الذي يمتنقه أكبر عدد من الناس . ويعرفون أيضاً أن الإسلام في مملكة الفولجا البلغارية (جمهورية التتار السوفياتية في الوقت الحاضر) ، قد أخذ ينتشر في نهاية القرن التاسع ، وفي النصف الأول من القرن العاشر ، حتى أصبح وطيذ الأركان ، شامخ البنيان .

وعلى ضوء ما تقدم ، ويطلب لنا أن ندرس مصر الإسلام في هذين البلدين أثناء القرنين السابقين للغزو المنغولي ، وذلك بين سنة ١٠١٦ م ، وهي السنة التي أنهات فيها مملكة الخزر بصورة نهائية ، وسنة ١٢٢٣ م ، وهي السنة التي ابتداء بها الغزو المنغولي الأول .

(*) سبق أن قمنا الأستاذ المؤرخ للعلم للفراء في عدد الرسالة ٩٢٩ وهذا مقال رابع آخر نشره في مجلة (اسلامك ريفيو) عدد مايو ١٩٥١) ترجمه لفراء الرسالة لبراهمة الرض ودلة التحليل وعمى الفكرة ، التي يجاز بها أسلوب هذا المؤرخ السلم النابه في كل ما يكتب في موضوع اختصاصه من تاريخ المسلمين . المترجم

وسأستمع ، بكل ما يتصل بالمصير السيامي لسكان مملكة الخزر السابقة ، بنظرية المشرق الروسي العظيم جريجوريف (V: Origortev) ، الذى يعتقد أن أولئك السكان قد اندمجوا بالقبشاك (Kipchaks) ، وهم قوم رحل من دم تركى ، تطلق عليهم المصادر الأوربية اسم كومانز (Cumans) ، والمصادر الروسية اسم بولوفرسيس (Polovtsi) (١) . ولسوء الحظ ، لم يحاول البروفسور جريجوريف ، كما أعرف ، دعم آرائه بمصادر يمكن الرجوع إليها ، ولذلك لا ممدى لنا من إيضاح بمض القموض الذى يكتنف هذا الموضوع .

أما مصير الإسلام فى مملكة الخزر السابقة ، فسأحاول أن أوضح أن خضوع هذه المملكة للقبشاك ، قد تبينه امتناع العناصر التى استقرت من بداوتها ، من هؤلاء الناس ، الذين الإسلام الحنيف .

وتحت هذه الظروف ، سأحاول تقسيم هذا المقال إلى قسمين :
(١) اندماج الخزر فى القبشاك . (٢) امتناع العناصر التى تخضرت من القبشاك الإسلام فى مملكة الخزر السابقة
١ - اندماج الخزر فى القبشاك :

نظرا للدور المهم الذى مثله القبشاك فى القسم الشرقى من أوروبا ، والقسم الغربى من آسيا ، نرى قبل المضى فى الحديث عن هذا القسم ، أن نشير إشارة عابرة إلى أهميتهم السياسية فى التاريخ .

إن القبشاك هم آخر الجماعات الرحل التى وصلت إلى أوروبا من أواسط آسيا ، قبل المنغول ، بأعداد كبيرة جدا . ونحن نتحدث عن أهميتهم السياسية يكفى أن نعرف أن هجرتهم قد شملت مساحات هائلة ، امتدت من منابع الأرتشى (Irtysh) فى سيبيريا عبر سهوب الكازاخستان (Kazakhstan) إلى جنوب روسيا حتى مصب نهر الدانوب ، وعلى الرغم من أن القبشاك لم يتمكنوا من تكوين وحدة اجتماعية ، عاشوا حتى الفز المنغول ، قبائل مفرقة ، بسبب عددم الهائل ، والساحة المتخمة التى شغلها (١) بحث الأوبرا المشهورة التى كتبها بوردون Borpdia وهنوتها (الأمير أجور) عن حلة هذا الأمير ضد هؤلاء الناس .

فى أيدي أبحاثها ، لم يدرس الدراسة التى يستحقها ، ولم يمن به أحد ، كما أعرف ، حتى اليوم .

ومرد ذلك إلى قلة المصادر ، ليست المكتوبة منها فحسب . وإنما الآثار الإسلامية نفسها ، فإنها مشوهة وقليلة جدا . ولكن نفهم هذا الأمر فهمما دقيقا ، علينا أن نذكر أن أراضي مملكة الخزر السابقة قد صلتت مسرحا لحروب دامية ومدمرة ، كانت تنحدر من الوجود مدنا بأمرها ، وتتركها ألقاضا ، تنشأ فوقها فى كثير من الأحيان ، مدن حديثة .

ومن المحقق أن هذه الألقاض تؤلف مصدرا خصبيا للآثار الإسلامية ، وأن عمليات التنقيب ، لأسباب لا يتسع المجال لذكرها ، لم تتجاوز فى أحسن أوقاتها ، المراحل الأولى ، وفى كثير من الأماكن المهمة لم تبدأ أبدا . ونذكر على سبيل المثال أن موقع عاصمة مملكة الخزر أنيل لما يكتشف

ولما كانت المدن التى بناها هؤلاء البرابرة فى عهدهم الذهبى ، قد قامت على ألقاض مدن مملكة الخزر التى هدموها ، لذلك كثيرا ما كانت نتيجة التنقيب ، لا تتجاوز الطبقات التى تصل بمهد أولئك البرابرة الذهبى . أما الطبقات التى يحتمل ، والتى تقضى حكاية مصير الإسلام فى ثنائها ، فى الفترة التى نتحدث عنها (١٠١٦ - ١٢٢٣ م) فلما نصل إليها أيدى النقبين .

غير أن هذا النقص فى هذه المقدمات التى تقين على دراسة هذه المشكلة التاريخية ، ينبغى أن لا يبق عفة تبرر إهمال هذه الدراسة . وعلى النقيض من ذلك يجب أن نحفز هذه الحقيقة - رغبتنا ، وتبنت فيها حب الكشف عن المجهول ، وتدفعنا إلى التفتيش عن مصادر لم نفتش عنها قبل اليوم . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه ينبغى ، بآدى ذى بدء ، قبل الحصول على معلومات واقعية عن طريق التنقيب ، أن نلخص ما هو معروف من حقائق التاريخ ، نستطيع رؤية النتائج التى يمكن أن تنشأ من مقدمات من هذا النوع . وهذا ما نحفز إلى محاولة الكشف عن هذه الحقائق الغامضة ، التى ليس فى استطاعتى قول الكلمة الفاصلة فى شأنها ، ولكن إذا قدر لى أن أوضح خطوط المشكلة الرئيسية بمض التوضيح ، فقد يصعب محاولتى ما أرجوه لها من توفيق .

استيلاء المنغول بصورة نهائية على أراضي مملكة الخزر السابقة في ابتداء السنة الثلاثين في القرن الثاني عشر الميلادي ، فقلد كان القيشاك الذين قاموا بالمنغول والشعوب الأخرى لا ذكر لها ، ومن بينهم الخزر

والصادر الفارسية تتحدث من جهة أخرى عن استيلاء القيشاك على شبه جزيرة كرش Kerch في أمية الغزو المنغول ، والتي كانت تحت حكم الخزر

ومن غير المنقول أن أمة قوية كالنستاف ، يمكن أن تترك وراءها أمة محاربة كالخزر دون أن تخضعها أولا

وأحسب أننا في غير حاجة إلى الدخول في تفاصيل أخرى بعد ما تقدم لتؤكد أن القيشاك ، قلعوا الخزر في المنطقة حتى مصب الفولجا ، تلك المنطقة التي كانت المركز السياسي لدولة الخزر ، التي ذابت فيهم بالتدريج ، والتي ازدهر فيها الإسلام قبل وصول هؤلاء الغزاة الذين سارعوا لاعتناقهم وسنحاول الآن تبين أن اندماج الخزر بالقيشاك قد نبهه اعتناق العناصر التي استقرت من هؤلاء الغزاة ، مبادئ الدين الإسلامي الحنيف بالتدريج

٢ - اعتناق القبائل القيشاكية التي استقرت في مملكة الخزر الإسلام : -

يعتبر المستشرق الروسي العظيم ف. بارنولد الذي توفي عام ١٩٣٠ حجة في سعة الاطلاع على مصادر التاريخ الاسلامي في مملكة الخزر السابقة . والذي أمره أنه لم يحسب مطلقا ، دراسة مصير الإسلام في هذه المملكة دراسة جدية ، وكثيرا ما يجد الإنسان بعض الأحيان تناقضا فيما كتبه عن هذا الموضوع ولكن ما ذكره بصورة عامة عن جيوروت الاسلام ، وسعده ، وما اسهب فيه من الدعاية لذلك الدين بين العناصر التركية ، يستند إلى حد بعيد الرأي الذي بسطناه في هذا الموضوع من اعتناق هؤلاء القيشاك الدين الاسلامي ولا يتناقض معه أبدا وقد رأيت أن أقتبس بالحرف الواحد ما ذكره المستشرق العظيم بارنولد عن هذا الموضوع :

قال بارنولد : « إن المعجزة العظيمة للإسلام ، إذا ما قورن بالبيانات الأخرى ، تتركز في أن العالم الاسلامي كان في تلك

هجرتهم ، إلا أنهم اسبوا دورا عظيما في تاريخ البلدان المجاورة ، وبصورة خاصة في خوريزم ، وجورجيا ، وروسيا ، وهنغاريا ، ويزنطيا . ومن الضروري أن نشير إلى أن مصر كانت تستمد محاليتها من منتصف القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر من هؤلاء القيشاك بصورة رئيسية ؛ ذلك لأن نجار الرقيق من الإيطاليين ، كانوا يجلبون من موافى شبه جزيرة القرم ، الرقيق من القيشاك ، ويبيعونه بعد ذلك في ميناء الإسكندرية . وكما هو معروف في التاريخ ، أن السلطان بيبرس (توفي سنة ١٢٧٧م) أحد أعظم المالك كان من القيشاك ، وأخيرا أصبح القيشاك يؤمنون الكثرة المطلقة من سكان عصر المنغول الذهبي .

أما المحتوى الثقافي لأولئك القيشاك فقد كان بقبائ كثيرا ؛ إذ كان يعتمد ، إلى حد بعيد ، على قدر اتصالهم بالبلدان المتدينة من قريب أو من بعيد . ومن المضحك أن أولئك الذين عاشوا مجاورين للخورزم ، وعدد كبير جدا ، قد تأثروا بالإسلام تأثرا قويا عميقا . والسؤال الذي بقي يدور في خواطرنا في هذه المرحلة ، أن نبين المصير الذي آل إليه الخزر بعد سقوط دولتهم .

أما احتياج القيشاك أراضي مملكة الخزر السابقة ، فتلاشى بالتدريج اسمهم من التاريخ ، ولم يمد لهم إلا بعض الذكر في المدن . ولما تم بدراستنا بفترة تتصل بأراضي مملكة الخزر السابقة ؛ ولا نجد ذكر القيشاك بملأها ، وإلى جانبهم ، بصورة محدودة ذكر الآلان Alains ، وهم شعب من أصل إيرياني كونوا ألتاية كان لها خطرها في مملكة الخزر السابقة . والذين لا يزال أبنائهم ، حتى اليوم ، يعيشون في شمال القفقاس ويعرفون بالأصاغة (Ossetes) . ولهذا السبب نجد أن رشيد الدين ، مؤرخ امبراطورية المنغول المشهور ، حين يتحدث عن وصول المنغول في الهجرة الأولى ، للأمبراطورية الشرقية عام ١٢٢٣م يصف كيف أتوا من إيران عن طريق القسم الشرقي من القفقاس ، واضطروا إلى الشمال إلى كسر شوكة المقاومة القيشاكية والألتانية : ومن البديهي أنه لو بقي للخزر سلطان سياسي ، لامبوا دورا مهما في مقاومة المنغول ، ولكن لهم ذكر في تاريخ رشيد الدين . ونجد الحقيقة نفسها ، في

لم يكن غير سحابة سيف . وفي الوقت الحاضر يبدو أن النصرانية هي ديانة العالم الأوربي ؛ غير أن المسيحيين وراء حدود هذا العالم الأوربي ، من الناحية المادية والسمو العقلي ليست لهم قيمة في الأمرين بالقياس إلى المسيحيين في أوروبا . أما الإسلام فلقد أصبح عن طريق ما فيه من صدق ، دين الشعوب المتمدة في أوساط آسيا وشرقها ، ويزيد عدد أتباعه وخاصة في الهند ، وفي الأرخبيل الأندونيسي عن عديم في غرب آسيا . ويؤلف المسلمون في الصين عنصرا مستقلا بثقافته الدينية التي تقوم بالتعبير عنها لغتهم الأصلية دون الشعور بالحاجة إلى مساعدات خارجية ، على حين أن محارلة الديانة المسيحية المتمكنة لنفسها في الصين قد باءت بفشل ذريع وخيبة مخجلة . وفي أفريقيا صادفت النصرانية نجاحا ضئيلا بالقياس إلى الدين الإسلامي وبين الأحباش ، الشعب الأفريقي الوحيد الذي استطاعت الكنيسة أن تجد لها مكانا فيه . امتدت للدعاية الإسلامية إلى المكان نفسه ، وصادفت نجاحا حتى في القسم الأخير من القرن التاسع عشر . وخلاصة القول أن التاريخ يعرف أن كثيرا من الشعوب البوذية أو المسيحية قد اعتنقت الإسلام ، ولكنه لا يعرف أية جماعة إسلامية اعتنقت البوذية أو المسيحية .

على محمد سرطاوي

الكلام

الإلهام في القرآن

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

وهي القصة المألمة الواقعية الرائعة الخالدة للشاعر

الفيلسوف « جوته » الألماني

نصفه ٢٥ قرشا هذا أجره للبريد

الفترة ، في مستوى رفيع من الطاقة الثقافية ، والرأى الاقتصادي بين الشعوب المتمدة . وكان هؤلاء الرحل في حاجة مستمرة إلى البضائع المصنوعة في تلك الأقطار المتمدة ، وبصورة خاصة إلى الأقمشة . وكان الأنجار مع هؤلاء الرحل ، في الوقت نفسه ، عظيم النفع لتلك الشعوب المتحضرة . لكن هذه التجارة كانت ضرورية لهؤلاء الرحل الذين كانوا يطلبونها من الأقطار الغربية المتمدة ، ولما أصبحت البضائع التي يشترونها من البلدان الإسلامية من ضروريات حياتهم تأثروا بالإسلام ، لا عن طريق الدين لحسب بل عن طريق الحضارة الرائعة التي كان يقسم بها ذلك الدين . ولم يكن أمامهم غير اعتناق الإسلام ليحبل صلاتهم الروحية والمادية متينة مع تلك البلدان والشعوب الإسلامية

« ولقد أظهر الإسلام سمة أخرى يمتاز بها عن سائر الديانات المروفة ، أثناء الدعاية له بين الترك ؛ ذلك أنه على الرغم من قلة عدد أتباعه بالقياس إلى الديانة البوذية والمسيحية ، فإنه يمكن لنفسه في قلوب البشر كدين عام للإنسانية ، بأوسع ما تحويه هذه الكلمة من معنى ، لأنه لا يقصر نفسه على جماعة أو جنس من بني الإنسان . إن النجاح الذي سادته الديانات الأخرى كان في بعض الأحيان أكثر مما وصل إليه الإسلام ؛ غير أن ذلك النجاح لم يمر طويلا . فلقد عرف تاريخ الديانات فيما عرف الديانة المانيكية (١) Manicheism التي امتد ظلها فوق الأرض وكان لها أتباع ينتشرون من جنوب فرنسا إلى بلاد الصين ، غير أن هذا الانتشار لم يكفل لها الحياة فذهبت إلى غير رجعة ، ومحت من سجل الوجود . والديانة البوذية ابتعدت بنشاط عالمي ، وراحت تنقر في بلاد القرب محمولة على أجنحة دعاية قوية ؛ ولكنها انكمشت على نفسها لتصبح ديانة البلدان الواقعة في شرق آسيا . وقبل انتشار الإسلام كان للنصرانية أتباع بين الترك أنفسهم ؛ وفي الوقت الذي أوسدت الأبواب في منغوليا أمام الدعاية الإسلامية ، اعتنق القباية للمسيحية عدد كبير من الناس الذين كانوا يبيعون في الأجزاء الجنوبية والشرقية والغربية من هذه البلاد ، غير أن هذا النجاح

١ - ديانة انتشرت في القرن الثالث إلى الخامس الميلادي ، وابتهت في فارس ، وهي تفلح للباس مع الخلل في حرجة واحدة